تاريخ الوطن العربي القديم

بلاد الرافدين

منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ الوطن العربي القديم

بلاد الرافدين

الدكتور
عيد مرعي
أستاذ في قسم التاريخ

الدكتور
فيصل عبد الله
أستاذ في قسم التاريخ

جامعة دمشق

1434 – 1435 هـ
2013 – 2014 م

المحتوى . والمفردات

الصفحة

- **تقديم.** **11**
- **تمهيد:** مكانة التاريخ القديم ومشكلاته في الثقافة العربية المعاصرة **13**

1 . الفصل الأول: الطبيعة والإنسان وإنتاجهما البيئي: **17**

1: النهـران العظيمـان. 2: الطقـس والفيضـان. 3:. الزراعـات. 4: تقنيات الري والمزارعون الأوائل. 5: المواد المعدنية وطرق التجارة. 6 . خلاصة.

2 . الفصل الثاني: **41**

1: قصة اكتشاف الماضي الرافدي على يد الأوروبيين.
2: اكتشـاف المصـادر الأثريـة والكتابيـة. 3: المـدن الترابيـة والتنقيـب العلمي بدل العشوائي. 4: كيف يتم التأريخ. 5: النهضة الأوروبية . الاستعمار ونهب الآثار. 6: نشوء علم الآثار وبدء التنقيب المنظم. 7 . خلاصة.

3 . الفصل الثالث: جرمو العراقية أقدم قرية في العالم: **67**

1: عصور ما قبل التاريخ القديم . الأوسط . الحديث.
2: خلاصة.

4 . الفصل الرابع: الأدوار الثقافية الأولى قبل التاريخ: **81**

1: من القرية الحجرية إلى المدينة الفخارية. 2: ثقافة حسونة.
3: ثقافة سامراء. 4: ثقافة حلف. 5: ثقافة العُبيد.
6: جذور الثقافة السومرية. 7: خلاصة.

الصفحة

5 . الفصل الخامس: فجر الحضارة وفجر التاريخ: **97**

1: الانقلاب الكبير وانطلاق المدينة. 2: ثقافة أوروك الانقلابية واختراع الكتابة التصويرية الأولى في التاريخ البشري. 3: ثقافة جمدت نصر أو الأعمال الفنية الأولى في تاريخ البشرية . الفخار . المعابد . النحت . خلاصة. 4: انتشار الحضارة السومرية. 5: علاقة مع مصر. 6: تباين بين الشمال والجنوب.

7: المشكلة السومرية وأصل السومريين: الأسئلة والشك . الحقائق والوقائع . هل اللغة تدل على الأصل . النتيجة.

6 . الفصل السادس: هل السومريون أوائل الأنبياء أو مَنْ اخترع آلهة سومر: **117**

1: أصل الدين وأهميته. 2: منابع الفكر الديني العراقي.

3: وظائف الآلهة. 4: هل هناك إله واحد؟ 5: المرأة تشارك في الألوهية . الزواج الإلهي الملكي. 6: أساطير وملاحم الخلق.

7: الخلق البابلي. 8: الولادة والحياة . الموت والنهاية . المصير والحظ . مكان الجمهور في الدين . التوسل والابتهال . حياة ما بعد الموت . السحر والطقوس والأعياد . إغراء الإلهية.

9: خلاصة.

7 . الفصل السابع: السلالات الأولى ومغامراتهم وبطولاتهم: **141**

1: جنة عدن. 2: من آدم أول إنسان إلى الطوفان، ملحمة آدابا، أنساب الإنسان وأصل المُلْك، لا ديمقراطية هنا. 3: الطوفان العراقي الرافدي وطوفان الأديان، ملحمة جلجامش، جمهور المثقفين البريطانيين والطوفانات الواقعية، هل للطوفان من أثر واقعي، خلق

الإنسان والطوفان البشري، الطوفان والانفجار السكاني، المعاني الحقيقية للطوفان. 4: السلالات البطولية الإلهية وتأريخها، النسر وايتاناً في السماء، سلالات سومر والعلاقة مع إيران، جلجامش كملك حقيقي، قصة ومضمون ملحمة جلجامش. 5: خلاصة.

8 . الفصل الثامن: السلالات الملكية السومرية الأولى (الباكرة): **165**

1: تقسيمات منهجية. 2: الأدلة الأثرية والكتابية في العراق.

3: فن النحت السومري الباكر.4: التجارة. 5: الدويلات أو الإمارات السومرية.6: تنظيمات اجتماعية وسياسية سومرية: الإمارة . حق الملكية الأقدم في التاريخ، إله وإلهة للمدن وألقاب ملكية، وظائف الملك. 7: أساطير الملوك الأوائل في كيش، في أوروك، عصر جلجامش. 8: فاجعة دفن الأحياء. 9: مخلفات أثرية، نصب الصقور. 10: المعاهدة الأولى في التاريخ.

11: أورانمجينا: أول مصلح في التاريخ. 12: شخصية لرجال زاجيزي. 13: أهم الإنجازات وخلاصة العصر السومري الباكر . اللغة الكتابية.

9 . الفصل التاسع: الأكاديون وعصرهم: **189**

1: تمهيد. 2: قيمة التاريخ والحضارة الأكادية. 3: أثر ثقافة سومر. 4: رقعة فتوح أكاد وتوحيد المشرق العربي للمرة الأولى في التاريخ. 5: أصل الأكاديين وخلفائهم. 6: من هم الساميون؟ اللغة، موقع العربية من الساميات. 7: أصول المحيط الأكادي. 8: الأصول وفق المعطيات الجغرافية والتاريخية.

9: الإمبراطورية الأولى في تاريخ العالم، شروكين، إنجازاته، الحق الإلهي، شروكين الأسطورة والواقع، أحفاد شروكين ، النتائج والنهاية، الثقافة والفن وانتشارهما.

الصفحة

10 . الفصل العاشر: العصر الغوتي وعصر الأحياء السومري: **209**

1- العصر الغوتي . 2- عصر الإحياء السومري : سلالة لاجاش الثانية . عصر سلالة أور الثالثة : تأسيس مملكة أورنامو . أورنامو . شولغي . أمارسين . شوسين . إبي سين وسقوط مملكة أور الثالثة . حضارة مملكة أور الثالثة.

11 . الفصل الحادي عشر: العصر البابلي القديم : **237**

1 . مملكة إسين. قانون ليبيت عشتار. 2 . مملكة لارسا.
3. مملكة إشنونا . 4- المملكة البابلية الأولى : بابل في عهد حمورابي . قانون حمورابي . الحياة الاجتماعية في بابل من خلال قانون حمورابي . الحياة الاقتصادية في بابل من خلال قانون حمورابي . خلفاء حمورابي وسقوط المملكة البابلية الأولى . الانجازات الحضارية في عصر السلالة البابلية الأولى . 5- مملكة ماري 6- مملكة آشور .

12 . الفصل الثاني عشر: العصر الكاشي : **303**

أصل الكاشيين . أهم الملوك . اتصال الكاشيين بقوى العصر الكبرى . عصر العمارنة . بابل الكاشية في أواخر أيامها . عصر سلالة إسين الثانية . التطور الحضاري في بلاد بابل في العصر الكاشي .

13. الفصل الثالث عشر: مملكة حوري _ ميتاني والعصرالآشوي الوسيط : **337**

1- مملكة حوري – ميتاني : تأسيس المملكة . التطور الحضاري .
2- العصر الآشوري الوسيط : تأسيس المملكة وأهم الملوك . التطور الحضاري .

14 . الفصل الرابع عشر: العصر الآشوري الحديث (الإمبراطورية الآشورية الحديثة) : **369**

بدايات نشوء الإمبراطورية والتغييرات السكانية . أهم ملوك **الإمبراطورية** الآشورية الحديثة : شلمنصَّر الثالث وخلفاؤه . تيكلات **بيليصر** الثالث . السلالة الصارغونية . آشوربانيبال . سقوط الإمبراطورية الحديثة . أهم الإنجازات الحضارية .

15 . الفصل الخامس عشر: الإمبراطورية الكلدية (البابلية الحديثة): **447**

بلاد بابل في عهد نبوخذ نصَّر الثاني . التطور الحضاري .

المصادر والمراجع: **465**

أ . العربية والمعربة . ب . الأجنبية.

تقديم:

إن غايتنا من هذا الكتاب المقرر لتاريخ بلاد الرافدين (العراق القديم) هو معالجة سياسية في إطارها الجغرافي والإنساني من خلال النصوص المسمارية منذ فجر التاريخ حتى سقوط بابل عام 539 ق.م على يد الفرس الأخمينيين . فقد شهدت هذه المنطقة المهمة من الوطن العربي تحولات كبرى في تاريخها، تمثلت بقيام وسقوط الممالك والامبراطوريات، وبروز الكثير من الأبطال والشخصيات العظيمة، والكثير من الانجازات الحضارية المهمة بدءاً من ظهور المدن الأولى المحاطة بالأسوار إلى معرفة الزراعة وصناعة الفخار حتى اختراع الكتابة، بحيث يمكننا القول إن هذه المنطقة كانت من أقدم مواطن الحضارة الإنسانية في العصور القديمة.

وقام المؤلفان باقتسام العمل فكتب الدكتور فيصل عبد الله الفصول التسعة الأولى من الكتاب حتى سقوط نهاية العصر الأكادي على أيدي الجوتيين، وتابع الدكتور عيد مرعي كتابة بقية الفصول حتى سقوط بابل على يد الفرس الأخمينيين.

وقد قاما بإنجاز عملهما معتمدين على المصادر والمراجع الأجنبية والعربية الأساسية، وتتبعا أحداث الأبحاث والدراسات من أجل تقديم صورة جلية واضحة عن تاريخ بلاد الرافدين (العراق القديم) .

وقد سبق أن نشرا العمل للمرة الأولى في جامعة دمشق في العام 1995، وظهر في عدة طبعات، وقد آن الأوان، لإعادة تأليفه في إطار الأبحاث الجديدة التي ظهرت منذ الطبعة الأولى حتى عام 2013، وإضافة المتغيرات والتفسيرات في إطار المكتشفات النصية والأثرية وما أسفرت عنه من الدراسات الغزيرة التي نشرت في مراكز البحوث الأوروبية والأمريكية. وكذلك مساهمات الباحثين الجامعيين في العراق وسورية.

نأمل أن نكون قد وُفقنا في عملنا، ونتحمل من جهة أخرى مسؤوليتنا العلمية عما جاء بين طيات هذا الكتاب.

(المؤلفان)

مكانة التاريخ القديم ومشكلاته
في الثقافة العربية المعاصرة

تمهيد:

إن تاريخ الوطن العربي القديم هو تعبير جغرافي وسياسي وقومي يشكل أرضية لفهم تاريخنا المعاصر، وهو اختيار ثقافي ولغوي، إذ أن جميع سكانه يتكلمون العربية ويدينون لماضيهم بثقافة مشتركة وأبرزها الديانات السماوية، وبالأخص المسيحية والإسلام. إن التاريخ القديم الذي سنعالج موضوعاته في الفصول الآتية، قد كان مجهولاً تماماً في العصور الوسطى لدى المؤرخين والجغرافيين العرب، ولم تدفعهم الإشارات الدينية في الكتب اليهودية والمسيحية والإسلامية إلى الفراعنة و«طغيانهم». وبعض الأقوام التي عاشت قبل الإسلام إلى البحث عن مزيد من المعرفة عن تلك الأقوام. بل كان موقفهم منسجماً مع أصحاب العقائد قديماً وحديثاً لإبراز مميزات دعوتهم الجديدة. كما لم يهتموا بالأطلال والآثار الماثلة أمامهم أو اللغات واللهجات المشابهة للغتهم. ولهذا لا نستغرب كثيراً العُزلة التي تعيشها القلة القليلة من المتخصصين في التاريخ القديم عامة وبتاريخ المشرق العربي خاصة أو بصورة أدق علماء الأكاديات أو الآشوريات كما كان معروفاً منذ بضع عشرات من السنين، تلك العُزلة الناتجة عن جهل الأوساط المثقفة بالتاريخ القديم ونصوصه ولغاته، رغم أنه يشكل الخلفية الأساسية لحضارتنا وحضارة الغرب سواء بسواء. ولم يعد خافياً اليوم التأثير القوي لحضارة الرافدين والمشرق العربي عامة في حضارة الإغريق، ومساهمته المباشرة في تطوره المادي والروحي والإنساني. ولم تكن الأوساط الأوروبية المثقفة إلى وقت قريب بأحسن حال من بلادنا، إلا أن الأعمال العلمية والفنية والمعارض الكثيرة التي أنجزت في السنوات الأخيرة في العواصم الكبرى قد ساهمت في وضع حضارة العراق وسورية القديمة أمام المثقف الأوروبي، كما نفذت إلى أوساط العامة بفضل وسائط الإعلام. إن العراق وسورية لم يحظيا بالاهتمام ذاته من قبل الآثاريين والبحاثة والمؤرخين، كذلك الذي حصلت عليه مصر وبلاد بحر ايجه (الحضارتان المينوية والمكينية)، حتى تركيا وبلاد الأناضول عامة، قد حظيت باهتمام

يزيد على أهمية الدور الحضاري الذي لعبته بالماضي مقارنة مع سورية والعراق.

إن وسائط الإعلام العربية والمحلية لا تعطي أهمية تعادل الدور الكبير والحقبة الطويلة لحضارة العراق وسورية «الرافدين». ويسود كثير من المفاهيم والمعتقدات المغلوطة لدى معظم الفئات المتعلمة. وتلعب الدور السلبي في هذا الموضوع موجة من التأليف السوقي في التاريخ القديم، أقدم عليها بعض المغامرين الذين يعتقدون كما في العصور الوسطى أن التاريخ والعلوم الإنسانية يكتبها ويؤلفها من يشاء. ونسوا أن التاريخ أصبح علماً مستقلاً، وتفرعت عنه علوم أخرى لا يتقنها إلا متخصصون معروفون، يمضون سنوات وسنوات في الدراسة والتدريب ومن ثم يبدأون البحث والتأليف.

إن مكتباتنا لا تضم المؤلفات الضخمة والعديدة التي كتبها المتخصصون باللغات الأجنبية، ذلك أن علوم التاريخ القديم خاصة قد نشأت على أيد الأوروبيين وما زالت تتطور في جامعاتهم، بينما لم تبدأ جامعاتنا بإيفاد المتخصصين للدراسة في أوروبا إلا بعيد سنوات الإستقلال، وما تزال في بداية متواضعة جداً قياساً لما نحتاج إليه. كما لم تطبع الأعمال الفنية السومرية والأكادية والبابلية والآشورية والسورية بالألوان ولم تنفق الهيئات الرسمية مبالغ تذكر على حركة التأليف والنشر في هذا المضمار. كما أن إدارات متاحفنا لا تقوم بأي جهد لشد الجمهور إلى زيارة صالاتها المليئة بالأعمال الحضارية والفنية. بل تصب جهودها على تلبية الطلبات التي بدأت تكثر من أوروبا وأمريكا واليابان لاستئجار أعمال حضارتنا وإقامة المعارض في العواصم العالمية، كالمعرض الخاص تحت عنوان «ولادة الكتابة» وبلاد بعل وسورية وحضاراتها إلخ... أما الأعمال الأدبية السومرية والأكادية والبابلية والآشورية والأوجاريتية فقد ترجمت إلى اللغات الأوروبية ترجمات عدة وأمينة. ذلك أن أوائل من فك رمزها وقرأها هم أيضاً من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا، ولم نتمكن من نقلها كاملة إلى العربية. ويجب التنويه هنا، أن هذا الأدب القديم المترجم، لا يشكل لوحة متكاملة للأعمال الأدبية ولأنماط

التفكير والتخيل القديمين، لأنه وصل إلينا مهمشاً ومنقوصاً ولا يمكن فهمه إلا ضمن إطاره الزمني والمكاني، وباتساق مع المعارف الفنية والاجتماعية المستمدة من مصادر أخرى، ولهذا يجب الحذر من الترجمات السوقية من غير المتخصصين والهواة للتاريخ القديم، التي قد تبهر القارئ لتفردها بعنوانين وموضوعات مثيرة. وكما نوهنا أعلاه، فإن التاريخ القديم لأسلافنا، هو الأقل حظوة لدى المثقفين والمتعلمين بالعربية. ولسنا في مجال تحليل تلك الأسباب التي وضعت حجاباً سميكاً بين القارئ وتاريخه القديم، ولكن يمكن إيجازها بمجموعة من العوامل أهمها:

1 . نشوء علم التاريخ الحديث وقواعده في أوروبا وتعثره في البلاد العربية في ظل ظروفه السياسية والاقتصادية الصعبة.

2 . الهوة الزمنية السحيقة بين القارئ والتاريخ القديم، مما يولد غربة ناتجة عن اختلاف اللغات والعقائد الدينية.

3 . صعوبة الكتابة في التاريخ القديم، نظراً لصعوبة تعلم لغاته القديمة اللازمة لفهم نصوصه وإنشاء النصوص التاريخية الحديثة من خلالها.

4 . غياب خطة وطنية للتنقيب والاستغناء قدر الإمكان عن البعثات الأجنبية.

وقد تطور علم التاريخ القديم وكتابته في البلاد العربية وبخاصة في مصر وسورية والعراق بمعزل عن الجمهور بفضل جهود المؤسسات والأفراد المعنيين مباشرة بالأمر. وبرزت أسماء في عالم الآثار وقراءة النصوص القديمة في المتاحف والجامعات السورية والعراقية ولكنها لم تتمكن بعد من إقامة مراكز أبحاث مستقلة. في حين تغرق رفوف المراكز الأوربية لأبحاث التاريخ القديم بعشرات المؤلفات والدراسات كل شهر. كما لم تتمكن الجامعات السورية خاصة من المشاركة في أية أعمال تنقيبية واقتصر هذا العمل العلمي الوطني والقومي على جهود علماء أجانب يعملون ضمن أكثر من مئة بعثة مختلفة الجنسيات الأوروبية واليابانية والأمريكية.

وقد جهدت الكوادر الوطنية الممثلة بالمديرية العامة للآثار والمتاحف السورية على المشاركة المستقلة أو المزدوجة في أعمال التنقيب عن الآثار في مختلف العصور، ولكن

تبقى الجهود على المستوى الفردي أكثر منها على مستوى الوطن.. ونتيجة لقصورنا في مجال التنقيب والنشر فقد حرم القارئ العربي من يقرأ تاريخه القديم إلا من خلال ترجمات قد ينال من سلامتها عدم التخصص. كما وصار عرضة للمؤلفات السوقية الرخيصة التي كثرت في الآونة الأخيرة وراحت تعبث بمقومات البحث وتنشر ما تشاء عن التاريخ القديم مستغلة جهل القارئ به، وغياب المؤسسات العلمية.

وأخيراً نشير إلى فقدان خطة تنقيب أثري وطني شاملة، بحيث تبقي التلال المهمة للتنقيب بأيدٍ سورية. وألا يمنح المزيد للبعثات الأجنبية كما حدث في تل قطنا . المشرفة، الواعد. وهو ما كنا نتمناه أن يبقى للكوادر الوطنية. وألا يمنح للطليان والألمان حيث تمكن الأخيرون من اكتشاف أول كنوز التل!.

المؤلفان

الفصل الأول

الطبيعة والإنسان إنتاجهما البيئي

إن التنوع الجغرافي والبيئي كبير في منطقة الشرق العربي والبلاد المجاورة له. فالعالم العربي القديم، الذي يشكل فيه العراق وسورية ومصر، قلبه الدافق، ملئ بالصحارى والسهوب ووديان الأنهار والجبال الشاهقة. التي تغطيها الثلوج حتى في أيام الصيف، وتحتل بلاد الرافدين والشام أي العراق وسورية مركز الصدارة في عالم الشرق القديم، ويتوزع في شمالي سورية والعراق[1] المناطق الأكثر جمالاً طبيعياً واكتظاظاً بالمراكز الحضارية، التي تعد الأقدم في التاريخ الإنساني، وقد كان لهذا التنوع الجغرافي أثر عظيم في البيئة واختلافاتها. فقد ارتبط التوازن الدقيق لحياة الإنسان على عوامل الطبيعة، سواء ما يتعلق بتساقط الأمطار أو توافر الآبار والأنهار وثبات منسوب مياهها أو ثبات الطقس وقساوته وهدوئه، وقد خلق هذا التنوع نمطين رئيسيين من الحياة التقليدية ألا وهما: البداوة والرعي والقنص، والاستقرار والتحضر والزراعة. وقد كان لتوازن العوالم الطبيعية أكبر الأثر في توازن أو اختلال عوامل الاستقرار بين البدو والحضر.

لقد كانت ولا تزال البلاد الممتدة من مكدونيا واليونان إلى الأناضول فبلاد الشام وإيران فالهند، ثم العربية وامتداداتها الخليجية، ثم مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، مسرحاً جغرافياً متنوعاً لمجموعة متناسقة ومتكاملة من الحضارات التي أصبحت اليوم تحتل أصل حضارة الكون. وهذه البلاد الدافئة اللطيفة المناخ إجمالاً، قدمت للإنسان تنوعاً رائعاً في طبيعة الأراضي، فمن الصحارى وسهولها اللانهائية إلى شرائط البحر الرملية اللازوردية، إلى هضاب وسهولة وجبال ووديان وأنهار.

---

(1) من أجل جغرافية عامة ومفصلة للمنطقة انظر مؤلف:

W.B Fisher. The Middle East, London, 1978, 7 ed.

أما من أجل الجغرافية التاريخية:

Repertoire gegreaphique des texts cuneiform: form. = (RGTC) Tubingen Atlas des Vorderen Orients. Wiesbaden 1977.

ربما لا يوجد في الكون مثال على تجربة الإنسان مع الطبيعة والبيئة كالمثال الذي نجده في بلاد الشام وما جاورها، ولذا فهي مثقلة بالتاريخ والآثار أكثر من غيرها. وقد بدأ التوازن بين الطبيعة والفرد أكثر وضوحاً في الآثار والأعمال الفنية والأدبية. فقد كان لأوضاع المناخ وبخاصة هطول المطر، وتوافر الينابيع والآبار والأنهار الأثر البالغ في حياة الإنسان وجعلتها ميسورة أو صعبة قاسية، وهو ما نعيشه حتى اليوم، ويقرر مصير ازدهارنا. فأما المراعي الخضراء وتكاثر القطعان[2] وازدحام طرق التجارة، وإما جفاف وانطواء وشد الأحزمة على البطون. ولهذا فقد ظهرت آثار هذا النمط من الحياة في أخلاق الناس وعاداتها وعقائدها وإيمانها.

لدينا معلومات قليلة عن أوضاع المناخ والطقس والطبيعة الجغرافية في النصوص، إنما نستطيع استقراء تلك الأوضاع من خلال بعض الإشارات النصية، ومن خلال الأبحاث الجيولوجية والجغرافية لبلاد الشام والعراق. يمكن القول من خلال نتائج تلك الأبحاث إن أوضاع الطبيعة بما فيها من جبال وأنهار وسهول ووديان لم يتبدل منذ عشر آلاف سنة مضت على الأقل، وإن التغيير الطفيف في مجاري بعض الأنهار وبخاصة الكبيرين دجلة والفرات أمر معروف ومؤكد ويمكن تحديده ودراسته خلال الحقبة آنفة الذكر والتي تهمنا هنا لعلاقتها المباشرة مع دراستنا عن حضارة المشرق العربي القديم وما جاوره من بلدان. أضف إلى ذلك أن تلك الحقبة لم تشهد تغييراً أساسياً في المناخ، وهو إن كان يميل بشكل طفيف نحو الجفاف وازدياد درجات الحرارة، فالأمر ناتج عن الاستخدام الكثيف للتربة والاقتطاع الدائم للأشجار خلال عشرة آلاف سنة الأخيرة، ولم يكن تعويض هذا الاقتطاع بالزراعة الجديدة كافياً، مما حول مساحات الجبال والسهوب من اللون الأخضر إلى اللون الباهت الأجرد!!. ومن يعرف قليلاً طبيعة سورية والعراق

---

(2) انظر:

B.Landsberger , The Fauna of Ancient, Mesopolamia, Roma , 1960.
Lataune du Proche – Orient Dans l'Antiquite , Melanges de l'universite de Sanit – Josegh , 45 Beyrouth, 1969, PP. 443 – 462.

والأردن وفلسطين ولبنان وكذلك العربية وأطرافها بما تضمه من جبال وسهول خالية وقليلة الخضرة، وبخاصة نخيلها الباسقة الضاحكة سيجد أن هذا الوصف لا يختلف بشيء عما نجده في النصوص القديمة بدءاً من الألف الثالث قبل الميلاد، فالأراضي القديمة تستهلك منذ عشرة آلاف سنة على الأقل.

إن حياة الإنسان خارج المدن، بمظاهرها الزراعية والرعوية تسبغ على الطبيعة الصور ذاتها التي تطالعها في النصوص القديمة ومنها النصوص التوراتية والإنجيلية والقرآنية تلك الصور الشاعرية لحياة الرعي والتنقل والاستقرار الزراعي وما خلفته من آثار في تاريخ بلاد العرب القديمة. إن البيت الرعوي العربي المنتشر في أصقاعه كافة هو هو لم يتبدل منذ الألف التاسع والثامن قبل الميلاد عندما بدأ الإنسان ثورته الزراعية الأولى في نهاية العصور الحجرية القديمة. وما يزال المحراث السومري القديم المجرور بثورين أو حمارين أحياناً صورة حية تقليدية جميلة في بلاد العروبة دون استثناء. وإذا لم تعد الشمس والقمر والنجوم والرياح والأنهار والجبال آلهة تقدس وتُعبد فإن مظاهر قوتها واحترامها لم تختف من حياة الناس التقليدية، ويمكن استقراء الصور الشاعرية لها في الآداب المكتوبة والشفاهية. كما لا يوجد على ظهر المعمورة ما ينافس تلك النصوص الكثيرة المسمارية المنقوشة على الفخار والرخام، التي سجلت الانطباعات الأولى عن الكون والطبيعة [3] .

إنها إنتاج إنساني مستوحى من ذاكر متوارثة، ونصوص قليلة متواضعة.

إن المساحة الأساسية التي انطلقت منها حضارة سومر وآكاد في بداية الألف الثالث قبل الميلاد، لا تزيد على ثمانين ألف كيو متر مربع، وخطوطها الجغرافية يمكن تصورها انطلاقاً من خط نظري يصل بين حلب وبحيرة أُرميا في الأناضول ثم مصب نهري دجلة والفرات في شط العرب. وتقسم الحدود الحديثة هذا المثلث بين سورية والعراق حيث

---

(3)
Roux. Georges, La mesopotamie; Essai d'histoir Politique, economique et culturelle, Ed. Seuil. Paris 1985, P 17.

تضمان القسم الأعظم منه، بينما تقع أقسام صغيرة منه في تركيا وإيران اليوم. ونعلم أن تلك الحدود حديثة، حيث أن هذه البقعة تشكل وحدة جغرافية متكاملة تبدأ من منابع الفرات ودجلة وتنتهي بشط العرب.

وهذا ما عرفه أوائل الجغرافيين والمؤرخين الإغريق ببلاد ما بين النهرين أو بلاد الرافدين «ميزوبوتاميا Mesopotamia». وليس غريباً أن السومريين والآكاديين لم يكن لديهم اسم خاص لهذه المنطقة. فقد غلب على اصطلاحهم أسماء واسعة المعنى مثل (كالام Kalam بالسومرية وماتو matu بالآكادية: أي البلاد). واستخدموا أسماء مثل «سومر» و«آكاد» و «آشور» و«بابل» بصورة أضيق. وقد كان من أهم أسباب ذلك هو رسوخ مفهوم الدولة . المدنية حيث أن الممالك القديمة لم تكن تعنى سوى المدينة وما حولها رغم أن النفوذ السياسي قد يمتد إلى أبعد من ذلك، كما أن الأقدمين لم تكن لديهم ذات المفاهيم الجغرافية التي نعرفها اليوم، والتي تطورت عبر آلاف السنين وتبدلت دونما شروط ثابتة. ولكن هذه البقعة قد شكلت وحدة ثقافية متينة ومتطورة. ولم يكن لها نظير آنذاك سوى شقها الثاني على وادي النيل في مصر على الطرف الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا.

وقد دعيت حضارة هذا المثلث الجغرافي من سورية والعراق ولبنان وفلسطين والأُردن بأسماء متعددة وفق العصور والحضارات، نذكرها كما وردت في كتابات المؤرخين، الكلدانية، الآشورية . البابلية ، السومرية . الآكادية، والرافدية، ولكن المقصود دائماً هو مظهر حضاري واحد يمكن أن يضاف إليه السعودية والخليج واليمن وعمان ودول الإمارات والكويت. يعد الشق المشرقي الآسيوي لحضارة العرب السلفية، فيما يشكل وادي النيل وسواحل أفريقيا (ليبيا تونس الجزائر، المغرب وموريتانيا) الشق الثاني الإفريقي. وكانت هذه المناطق الجغرافية واسعة الأرجاء قد بنت جذوراً مشتركة في مراحل توطن الإنسان وازدهاره فيما قبل التاريخ، رغم كثير من الاختلافات والصعوبات الاجتماعية والسياسية واختلاطها بالعناصر الوافدة من أوروبا وأفريقيا وآسيا، مما لم يمنع من تلونها

وغناها الإنسانيين خلال ثلاثة آلاف سنة سبقت ميلاد السيد المسيح[4]. وقد كانت مدن شهيرة، أكثر من أن تكون أسماء بلدان، تلك التي حلقت في عالم حضارة الإنسان القديمة في بلاد العرب مثل: Ur وأوروك Uruk، وكيش Kish، ونيبور Nippur، وأكاد / آكد والأصح أجاد Agad، وبابل (باب . الإله) Babylon، وآشور Assur ونينوى Ninive وماري Mari وحلب Halab وإبلا Ebla . وهذا ما سمي من قبل معظم مؤرخي التاريخ القديم بدول المدن أو ممالك المدن، إذ لم يكن لهؤلاء الأقدمين اهتمامات أكثر من هذه الحدود الجغرافية، ولعل التطور الحضاري هو الذي سيقود الإنسان إلى الخروج إلى دوائر جغرافيا أكثر اتساعاً وضم عدة مدن كبرى وهو ما ستشهده في العصور اللاحقة.

شكلت المنطقة الجغرافية العربية وحدة ثقافية رفيعة المستوى وكانت نقطة انطلاقها ضمن حدود النهرين العظيمين الفرات والدجلة وما يحيط بهما، ولم يكن لهما من منافس أو قرين سوى شقيتها حضارة وادي النيل الممتدة من منابعه حتى مصبه. وكما كان هناك أسماء جغرافية محددة استخدمها الأقدمون، كذلك فقد أطلق على تلك الحضارة والثقافة القديمة الرفيعة أسماءها الأصلية مثل الحضارة الكلدانية، أو الآشورية . البابلية، أو السومرية الآكادية، أو الرافدية، أو حضارة بلاد ما بين النهرين[5]. أو تلك الأسماء الحديثة التي يميل إليها بعض المحدثين حضارة سورية والعراق القديمين، أو حضارة بلاد الشام والعراق القديمة، أو حضارة المشرق العربي القديم، وكلها تعابير لمكان وزمان واحدين.

---

(4) ن:

CAH 3, I , (cambridg Ancient History), I, PP. 35 – 62.

W. C. Brice (Ed.) The Environmental History of the Near and Middle East since. The Last Ice age. New York, London, 1978.

(5) انظر من أجل التعبير «بلاد ما بين النهرين» المترجم من Mesoptamia:

J. J. Finkelstein, ((Mesoptamia)). JNES. 21, 1962. PP. 73 – 92.

كان السومريون والآكاديون أول من أطلق عليها أسماء الزمن السومري الآكادي، والأرض السومرية الآكادية، ولذا فإن هذين الشعبين العظيمين يستحقان أن يحملا اسم حضارتنا القديمة كأقدم أسلاف للعرب اليوم، عرفهم التاريخ المكتوب. كما كانت هذه الحضارة منغرسة في أعماق ما قبل التاريخ، وحدث أن ازدهرت وتفجرت مع فجره القريب وخلقت هويتها ولونها الخاص خلال خمسة آلاف عام مضت، وما زالت كذلك.

أما المراكز الرئيسية لإشعاع تلك الحضارة العربية المشرقية السلفية، فقد ترعرعت وازدهرت في مدن أور وأوروك وكيش ونيبور، وأجاد (آكاد) وبابل وآشور ونينوى وماري وحلب وإبلا. وجميعها تقع على نهري الفرات والدجلة أو قريبة من منه مثل إبلا وحلب التي لا تبعد عن نهر الفرات أكثر من سبعين كيلو متراً. وهي موزعة ضمن الحدود السياسية للعراق، والباقي ضمن الحدود السورية. وقد بدأت تلك الحضارة بالإندثار من الناحية السياسية بدءاً من منتصف الألف الأول قبل الميلاد لأسباب سنتحدث عنها في حينه، وقد انتقلت بعض مظاهرها إلى الإغريق ثم إلى أوروبا، وانتقل الباقي شفاهاً عبر الأجيال إلينا، إلا أن وثائقها التي تدل عليها فعلاً قد انطمرت تحت تراب آلاف التلال وبقيت محفوظة إلى أن بدأت معاول الآثاريين من الأوروبيين والعرب بنبش ترابها وإخراج ما تكتنفه من كنوز ثقافية ومادية غيرت كثيراً من المفاهيم الثابتة.

لقد كان ماضياً عظيماً، بقي طي النسيان لفترة طويلة. وللأسف أنه لم يبق منه سوى القليل من أسماء عظمائه وأحداثه. أما آثاره المادية، فقد شققته الشمس وأذابته الرياح العاتية والأمطار والمياه الجارية والجارفة أو غطته الغبار فقضت على معالمه مع الزمن. ولكن أكبر درس يمكن أن يحصل عليه الإنسان من التاريخ يكمن تحت تراب تلك الأكمات والتلال، التي تضم مدناً صغيرة وكبيرة، مشهورة ومغمورة. بعضها عرفنا عنه شيئاً، وكثير ينتظر من يمد يده لإخراجه من المجهول.

والخلاصة: فإن البيئة والإنسان العربي القديم . السومري الآكادي . قد خلق حضارة الإنسان المكتوبة منذ خمسة آلاف سنة، وغير المكتوبة أي حضارة ما قبل التاريخ والكتابة. قبل اثني عشر ألف سنة من الآن.

وكان للبيئة التي يخترقها شريانات الماء أي أنهار الفرات والدجلة الدور الأول في بناء تلك الحضارة، فما هي حال هذين النهرين العظيمين؟.

1 . النهران العظيمان:

قال هيرودت «إن مصر هبة النيل»[6] كذلك فإن العراق وسورية الشمالي الشرقية هبة وتقدمة من النهرين العظيمين الشقيقين الفرات والدجلة، ولا يختلف محمولهما عن محمول النيل.

إن حمل هذان النهران منذ العصور السحيقة الطمي والرواسب من صخور منابعهما في هضبة الأناضول وألقياها بين المنطقة الممتدة من هضبة شبه الجزيرة العربية إلى مرتفعات زاجروس Zagros صانعين من خلفيهما سهلاً وسط الصحراء، لا مثيل له من حيث الخصوبة والاتساع، في كل المنطقة الممتدة بين النيل ووادي السند التي تصل إلى 3700 كم من الصحراء القاحلة. وهكذا يجب أن تتخيل أن سهول الخليج العربي والعراق هي صناعة فراتية.

والسؤال الذي يطرح أيضاً هل اتسع هذا السهل على حساب البحر من جراء الطمي في مصبه في الخليج العربي، وهل كانت مشارف بغداد في العصور الحجرية القديمة أقرب أو ربما تقع على البحر؟ ثم ابتعدت عنه مع هذا الزمن الطويل، هذه النظرية[7] التي كانت مقبولة كمسلمة دون برهان قد تطرق لها كل من الجيولوجيين البريطانيين فالكون Falcon وليس Lees وأثبتا أن الدجلة والفرات وكذلك نهر قارون Karun في إيران توضع طميها في حوض، مما أدى إلى تشكل سهل قرب المرتفعات الجنوبية

---

(6) إن قائل هذه الجملة هو هيكاتيوس الملطي Herodote II, 5. ن:

وانظر: «رو»: G. Roux. La Mesopotamie P. 363, No 5.

(7) «رو» المرجع السابق الذي يذكر هذا المرجع كأصل للنظرية:

Pline l' Ancien , Histoire naturelle , VI , 31. 13.

الغربية الإيرانية خلال أزمان سحيقة والتي يمكن تمييزها عن هذا السهل [8] . من جهة أخرى، نعلم أن مستوى مياه البحار قد ارتفع نتيجة تشكل وذوبان جبال الجليد الأوروبية في عصور البليستوسين Pleistocene والهولوسين Holocene ولم يمتلأ الخليج العربي إلا تدريجياً نح 3500 . 1400 ق.م تقريباً. ولهذا فإن الأراضي المغمورة بالطمي واللحقيات، يمكن أن تكون قد سكنت وزرعت في عصور قديمة جداً[9] . ولكن يجب ألا تثيرنا هذه المعطيات غير الأكيدة، إذ من الصعوبة بمكان معرفة عوامل الطقس والحت القديمة وهي وحدها التي تسدي إلينا ببعض أسرار التكوينات القائمة، ومن الأفضل أن نترك هذا الأمر جانباً ونتحدث عن وضع يمكن وصفه ورؤيته.

ينبع نهرا الفرات والدجلة من هضبة أرمينيا، الأول يبدأ قرب جبل أرارات Ararat والثاني جنوب بحيرة فان Van. ويبلغ طول الفرات Euphrate (2780 كم) متعرجاً كثيراً في الأناضول . تركيا، أما الدجلة فأقصر ويبلغ طوله (1900 كم) حيث يتجه مستقيماً ومسرعاً نحو الجنوب. وعندما يخترق النهران جبال طوروس نحو الجنوب، يتباعدان عن بعضهما بعضاً بمساحة من البادية يبلغ طولها نحو (400 كم) ويقترب الفرات من المتوسط غرباً عند مدينة جرابلس على بعد (150 كم) فقط، ثم ينحني باتجاه الشرق والجنوب ويقترب الواحد من الآخر مسافة (30 كم) فقط قرب بغداد، ثم يعودان للابتعاد، حتى يصلا إلى قرية قرنة Qurnah على مسافة مئة كم شمال البصرة حيث يلتحمان وتختلط مياههما مشكلة شط العرب. ويمكن التذكير هنا أن لكل من النهرين مجراه الخاص حتى مصبه في البحر. إلا أن هذا الحال كان قائماً في عصور أقدم.

---

(8) انظر:

G. M. Lees and N. L. Falcon, «The gergraphical history of the Mesopotamian Plains» , Georgraphical Journal, 118, 1852, PP. 24 – 39.

(9) ن:

C. E. Larsen, «The Mesopotamian selta region : a reconsideration of Lees and Falcon». JAOS, 45, 1975, PP. 43 – 47.

W. Nutzel, «The formation of the Arabian Gulf from 1400 B. C. Sumer, 31. 1975, PP. 101 – 109.

ويجري كل منهما في واد خاص وواضح بين مدينتي سامراء وحيت Hit، ويتخذان مجرى لهما في هضبة صخرية قاسية كلسية مؤطرة بالنتوءات مما لم يغير كثيراً في مجراه، وهذا ما سمح أن تبقى مواقع المدن القديمة على حالها، من هذه المدن المهمة نذكر كركميش (جرابلس)، ماري، نينوى، نمرود Nimrud وآشور Assur حيث بقيت قرب النهر أو على حافته. وبعد هذه الهضبة يشكل النهران ما يدعى بدلتا بلاد الرافدين ونظراً لهشاشة السطح فإنهما يشكلان بعض البحيرات والمنعطفات. وكما هي الحال في جميع الأنهار، فإن طمي النهرين يزيد في اتساع رقعة السهل أو الدلتا المعنية، وهذا ما جعل معظم تلال مدن الجنوب القديمة بعيدة عن مجرى النهر، وتحيط بها صحراء قاحلة من كل حدب وصوب.

هذا ومن الصعب دراسة مجرى النهر ومعرفة تبدلاته خلال العصور القديمة، ولكننا نلاحظ أن الأقدمين قد استطاعوا التحكم بمياهه خلال ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد وذلك أن النهرين قد حافظا على مجراهما الرئيسيين في هذه الفترة بدءاً من مدن سيبار Sippar وبابل ونيبور Nippur وشوروباك Shuruppak، أوروك، ولارسا Larsa وأور Ur . ويقع هذا المجرى على بعد نحو 25 إلى 80 كم من المجرى الحالي [10]. هذا ولا نعلم إلا القليل عن مجرى الدجلة الأوسط، بخاصة جنوب كوت Kut والعمارة، ولكن يبدو أن هذا النهر لم يلعب دوراً مهماً في هذه المنطقة بالنسبة لتاريخ بلاد الرافدين، وسبب هذا، إما غزارته وسرعته وعمق سريره مما لم يسمح بسقاية سهله بالقنوات، أو أنه كان محاطاً بمستنقعات، أكثر مما هو عليه اليوم[11] .

ويجب التنويه هنا، ونظراً للمعطيات الجغرافية السابقة أن مهد الحضارة السومرية هو مهد فراتي...

---

(10) انظر:

T. Jacobsen , «The Waters of Ur», Iraq. 22, 1960, PP. 174 – 185.

وقد نوقش هذا الأمر بالتفصيل من قبل ر. آدم:

R. Mc V. Adams , Heartland of Cities , Chicago , 1981, PP. 1 – 26.

(11) ن:

G. Roux. La Mesopotamie, p. 21.

2 . الطقس:

من جهة أخرى، فإن الطقس في بلاد الرافدين متوسطي جاف وقاس وتبلغ درجات الحرارة في فصل الصيف نحو خمسين درجة مؤوية ! أما الأمطار فلا تصل في العراق لأكثر من مئة مم في العام. ولهذا فإن الزراعة مرتبطة بمياه النهرين بصورة تامة. كما لا يسمح توزع الأراضي حول الوادي ولا نظام مستوى مياه النهرين بسقاية فصلية كالتي تحدث في مصر عقب فيضان النيل، حيث يغمر السهول مرة في السنة لمدة محدودة ثم ينحسر. أم فيضان الفرات والدجلة فيحدث بين شهري نيسان وحزيران، في وقت مبكر لموسم صيفي ومتأخر بالنسبة للموسم الشتوي، ولذا فإن على الإنسان، أن يهيئ السقاية المناسبة، وهذا ما تطلب أنظمة سقاية معقدة هي الأقدم من نوعها في عالم تنظيم الري، فقد اعتمد نظام الري بالقنوات منذ ذلك الزمن السحيق، والسدود الصغيرة، والخزانات، مما سمح بسقاية مستمرة طوال السنة. ولكن بناء نظام شبكة للقنوات بما يضمه من سكور وتحويلات، وخزانات على مسافات بعيدة، يتطلب يداً فنية خبيرة ووفرة في اليد العاملة، وتعاون ضروري بين المزارعين والسكان، وهذا لم يكن ليتم في العصور القديمة دونما أزمات تعكس واقع البلاد السياسي والاقتصادي، وتؤدي إلى حروب مدمرة. ولكن أخطر من هذا وذاك، مما هدد وما يزال يهدد الزراعة الفراتية هو الأملاح المترسبة التي تذوب في مياه السقاية ثانية وتقضي على المحصول إذا لم تتخذ احتياطات مناسبة لتصريف المياه المالحة. هذا الأمر لم يكن ليلحظه الأقدمون كما هو معمول به اليوم. ولهذا نجد أن كثيراً من السهول قد تحولت إلى عقيمة نتيجة الملوحة دون أن يتمكن الإنسان القديم من التغلب على هذه المشكلة[12] . أما الخطر الآخر الذي كانت تتعرض له السهول قديماً فيتجلى بالفيضان المفاجئ والسريع للفرات والدجلة، ولم يتغلب الإنسان على هذا الخطر إلا في العصور الحديثة بفضل السدود الضخمة التي أقيمت على مجرى النهرين، وباتت تتحكم بالمياه مهما بلغ ارتفاع منسوبها. من جهة أخرى فإن كمية الفيضان في

---

(12) ن:

T. Jacobsen; R. Mc C. Adams , «Salt and silt in ancient Mesopotamia». Science, 128, 1958 , 1251 – 1258.

النهرين ترتبط بكمية الثلوج والأمطار التي تهطل على الهضبة الأرمينية. ولذا لا يمكن احتساب حجم الفيضان فيبقى غامضاً عكس فيضان النيل الذي يسرح من بحيرة فكتوريا الكبرى التي تتزود بمياه فيضان مستقرة تقريباً[13] مما يجعل منسوب الفيضان النيلي مقدراً كل سنة في موعد وكمية محددين. ومما يعرف عن الفرات والدجلة أيضاً أن سنوات عجاف وقلة الأمطار قد تؤدي إلى الكارثة نتيجة انخفاض مستوى الماء، كما أن زيادة الأمطار والذوبات المفاجئ للثلوج الأرمينية تجعل من مياه النهرين خطراً يقضي على محصولات الحقول، ويزيل بسرعة بيوت الفلاحين الفقراء، وهذا ما حدث في فيضان عام 1954 في العراق، أضف إلى ما تقدم من أخطار، أخطار التصحر واندحار الخضرة مما يجعل مصير الإنسان وخاصة في العصور القديمة، بين يدي الآلهة والأقدار. ورغم هذا فإن أرض الجزيرة والفرات بصورة عامة، أرض خصبة، وكانت أكثر خصوبة وغنى في العصور القديمة، وقبل أن تمتد الملوحة إلى قسم كبير منها. وقد أغدقت خيراتها من الحبوب والمواد الزراعية على جميع السكان، فأطعمتهم وساهمت في تقدمهم، عندما استطاعوا تصدير قسم منها مقابل الخشب والقصدير والأحجار الكريمة وغير ذلك من المواد الأولية في ذلك العصر، مقابل الحبوب المنوعة من قمح وشعير وسمسم. واستخدم الفلاحون أدوات متطورة لفلاحة الأرض وتنظيمها الزراعي منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، ونعرف اليوم معظم هذه الآلات البدائية بفضل نص سومري يصفها ويسميها يعود إلى القرن السابع عشر قبل الميلاد[14]، وقد سمي هذا النص التقويم الزراعي أو مذكرات المزارع، الذي يذكر أنه قام بجمع هذه النصائح الزراعية من أجل ابنه، وقد أوحى بها إليه الإله نينورتا Ninurta الابن المزارع للإله انليل Enlil، حيث يذكر أنه يجب أولاً، وبعد الفلاحة، أن تسقى الأرض بعناية وباعتدال، ثم يعاد حرثها وتنظيفها

---

(13)

«Le regime du Tigre et de I'Wuphrate», Revue de Geographie alpine. 1940, PP. 511 – 565.

(14) ن:

S. N. Kramer. The Sumerians , Chicago, 1963 PP. 105 – 109; PP. 340 – 342; HCS, PP, 88 – 90.

وتسويتها وتجريفها، ثم يجري بذرها مع محراث بذار على شكل خدود متباعدة، وعندما ينبت الزرع، يجب الصلاة من أجل الإلهة نينكليم Ninkilim التي تطرد الحشرات والحيوانات الضارة غير المرئية.

ثم يُسقى الزرع أربع مرات وذلك عندما يطول الساق جيداً، إذا لم تضر به الحشرات يسقى مرة أخيرة، من أجل زيادة المردود عشرة بالمائة. ثم يتولى ثلاثة رجال عملي الحصاد، حيث يقطع الأول الجذوع بالمنجل ويقوم الثاني بجمعها وربطها، ويقوم الثالث بتحزيمها حزماً. هذا ويطلب النص أن يترك الفلاح بعض الجذوع من أجل بعض الحيوانات الصغيرة واللقاطين الفقراء. ثم يدرس الحصاد خلال خمسة أيام بوساطة عربة مزودة بغمد وشفرات حادة، ثم تذرى بالمذراة.

3 . الزراعات:

يتم إغراق الحقول بالماء وفلاحتها عادة في الخريف، أما الحصاد فيتم بين نيسان وأيار، ولكن يمكن أن يزرع محصول آخر بعيد أمطار الشتاء. ويذكر هيرودوت Herosaote وسترابون Strabon أن مردود القمح في بلاد الرافدين يصل إلى ثلاثمائة بالمئة وقد لا يبدو هذا مغالى به إذا كانت جميع الظروف مناسبة للموسم[15].

وقد قام بعض المؤرخين الغربيين بحساب مردود الأرض الزراعية جنوبي الرافدين في نحو القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد من خلال بعض النصوص المسمارية، فتبين لهم أنها تضاهي من حيث الإنتاج الحصول الكندية الحديثة، وهذا يؤيد المعلومات التي نقلها لنا هيرودوت وسترابون، ويذكر جاكبسون [16] في مقالة المنوه عنه أدناه، أن هكتاراً يعطي 17,7 قنطاراً حول منطقة جرسو Girsu في الديالي في نحو القرن الرابع والعشرين، أما في وقتنا الحاضر فقد ذكر أن إنتاج الهكتار قد سجل 8,8 إلى 9 قنطاراً،

---

(15) ن:

Herodote, I, 193; Strabon, XV, 14.

(16) انظر:

T. Jacobsen , «Summary of report By The Diyala basin archeological project». Sumer, 14, 1958 , PP. 78 -89. G. Roux. La mesopotamie, P. 364, No, 15.

ولكن هناك مشكلة فيما يتعلق بأرقام النصوص القديمة. وهي تحتاج إلى مناقشة لسنا في صددها. ولكن بوتز Butz قد ناقشها في المقال أدناه [17].

من جهة أخرى، تزدهر زراعة النخيل في وسط بلاد ما بين النهرين، حيث تتوافر المياه وترتفع درجات الحرارة وهو الطقس المناسب لتلك الزراعة، حيث تبدو أشجار النخيل وأقدامها أو جذورها في المياه وأعالي أغصانها تقارع الشمس المحرقة. وتشيد النصوص المسمارية والرسوم والمنحوتات الفنية في كل العصور إلى اهتمام كبير بزراعة النخيل وإنتاج التمور في العراق القديم، كما طورت زراعته في أفضل مما هو عليه اليوم عن طريق العناية والتلقيح والتأبير الاصطناعي[18].

4 . تقنيات الري والمزارعون الأوائل:

وقد كان طحين القمح والشعير والتمر الغني بالبروتين والحريرات (Calorie) يشكل غذاء رئيسياً ممتازاً للأقدمين. ولكن كانوا يربون الأبقار والماعز حيث ترعى في حقول الزراعة وبقاياها على مدار الفصول. إضافة إلى المراعي القريبة من مصادر المياه. وكانوا يصطادون الأسماك من الأنهار والقنوات والبحر بوفرة.

وزرعوا الخضار والفواكه مثل الرمان والعنب والتين، والحمص، والعدس، والفول، والزهرة والقرنبيط والبراصيا والخيار، والفجل، والخس. والبصل والثوم. وقد ترعرعت زراعة هذه المواد وغيرها كثير مما نستهلكه ونزرعه حتى أيامنا، في حقول مظللة بأشجار النخيل السامقة ومروية بمياه القنوات أو بوساطة الدلو وهي الكلمة العربية من أصل أكَّادي دَلُو Dalu Daliya. ويمكن القول أن العراق وسورية القديمين قد أنعما بوفرة في الإنتاج الزراعي والغذائي بصورة دائمة ومستقرة. ويشير أحد المؤرخين إلى أن الغذاء

---

(17)

K. Butz. In. E. Lipomski (Ed). State and Tempele economy in the Ancient Near East. Louvain, 1979, PP. 257 – 409.

(18)

V. H. Dawson, Dates and datex Cultivation Iraq. 1923; B. Landsberger The sate – Palm and its By – Products according to cuneiform Sources, Gruz, 1967; D. Coquerillat, palmeraies et cultures de I,Eanna d'Uruk, Brelin, 1968.

في الرافدين قد قدم 3495 حريرة في اليوم. ما عدا تعرضها للمجاعة في ظروف الحرب والكوارث الطبيعية، وقد كان لهذا الغنى والوفرة أثره في أطماع الجيران القادمين من أعالي جبال زاجروس وطوروس، وكذلك سكان البادية العربية السورية المجاورة[19] .

وإذا انتقلنا إلى الأراضي والمناطق المجاورة لبلاد الرافدين أو ما بين النهرين لوجدنا أن هنالك بعض الاختلافات المحلية بالنسبة للطقس ودرجات الحرارة والرطوبة والأمطار. إلا أن المنطقة برمتها يمكن أن تقسم إلى الأقسام التالية:

1 . الصحراء في الجنوب المتصلة بسورية والعربية [20].

2 . والبادية المطلة على النهرين.

3 . وسفوح جبال زاجروس وطوروس.

4 . المناطق البحرية جنوباً وما يتخللها من رامات وبحيرات.

يمكن القول إن الصحراء والبادية تطوق نهر الفرات من جهة الغرب تقريباً. وتصل حتى سفوح جبل حرمون وسلسلة جبال لبنان الشرقية. ولكن هذه المناطق لا تشكل الجزء المركزي لحضارة الرافدين، ونلمس أن تلال آثارها القديمة تنحصر في الجزء المركزي الذي تحدثنا عنه. ولكن هذه المناطق التي تبدو أكثر ارتفاعاً من بلاد الرافدين وأكثر امتداداً قد كانت على صلة وثيقة بتلك المراكز.

لقد عرفنا السومريين ومن بعدهم الآكاديين والبابليين والآشوريين كزراع ومزارعين. وكان عليهم أن يصارعوا دائماً ضد البدو القادمين من البادية وسكان الجبال من الشمال والشرق. وكان أوائل هؤلاء البدو الذين ذكرتهم النصوص هم الآموريون والآراميون ومن ثم العرب. وقد كان البدو سبباً في كثير من الخراب والدمار الذي حل بمدن الحضارة

---

(19)

J. Laesse, «Reflection on modern and ancient orienlal Waterworks», JCS, 7, 1953, PP. 5 – 26; M. S. Drawer, «Water Supply. Irrigation and agricul. Ture». In C. Singer, EJ. Holmyard and .A. R. Hall (Ed), A History of technology, London, 1955, R. Ellison, «Diet in Mesopotamia». Iraq, 43, 1981, PP. 35 – 43.

(20)

C. P. Grant , The Syrian Desert , London, 1937.

الرافدية. ولكن يجب ألا ننسى أنها كانت، تتجدد باستمرار، وهذا ما سنقرأ عنه في معظم الفصول التالية.

ويجب أن نذكر أن هنالك بعض الجيوب الصحراوية في قلب المناطق المروية والنهرية، كما هي الحال بين الخابور ووادي طرطر حيث تقع منطقة جافة وقاحلة، ومأهولة بقليل من البدو، وتتخلله السبخات الملحية. وبعيد جبل سنجار الذي يحمل الاسم ذاته في عصور سومر وآكاد (سجارو Siggar) ويرتفع 1463 متراً وبعيد جبل عبد العزيز 920 متراً، وبعيد سفوح طوروس، ويبدأ السهل الكبير المعروف بالجزيرة العليا، ويحتل 400 كم متر وهي المسافة التي تفصل الدجلة عن الفرات، وتخترقه عدة أنهار ومجاري مياه هابطة من سفوح طوروس أهمها الخابور والبليخ اللذان يصبان في الفرات، وينتشر الماء تحت هذا السهل الذي تقع عليه نسبة مقبولة من الأمطار (300 . 800 مم سنوياً) وعلى عمق بسيط ويشكل بذلك مصدراً آخر للسقاية، ونعلم أن ثلوج طوروس وتلك الأمطار هي التي تغذي تلك المياه الجوفية. وتنتشر هنا أهم سهول القمح الشهيرة منذ القديم حتى اليوم، ويتلوها مناطق أخرى أقل خصباً وكأنها تشكل أفضل المراعي في المنطقة حيث تنبت فيها الأزهار البرية والأعشاب. وتشكل الغذاء الأساسي للأغنام والخرفان السورية الآشورية الشهيرة. وتنتشر التلال الأثرية القديمة إلى جانب المدن والقرى الحديثة مما يشهد على عراقة الحضارة، وقد أثبتت المكتشفات الحديثة أن قلب الحضارة القديمة وأهم مراكزها قد ازدهر في هذا المكان.

وهناك زاوية طبيعية مقابلة في الشمال الشرقي بين العراق وإيران حيث يصل معدل أمطارها إلى ألف ملمتر في السنة وترتفع إلى 2500 و 3600 متر ليغطي قممها الثلوج ، وتفصل إيران عن العراق. في هذه الزاوية. نمت مراكز أخرى لحضارة بلاد الرافدين لا تقل أهمية عن مراكز الجنوب والغرب. تسرح في هذا السهل أربعة فروع نهرية تصب في الدجلة وهي الزاب الأعلى والزاب الأدنى، والديالي والأدهم، وتنمو حول وديانها وسهولها المدن والقرى الزراعية.

ولا تتعدى درجة الحرارة في هذه المناطق المرتفعة خمساً وثلاثين درجة مؤوية، وتهبط في الشتاء إلى ما تحت الصفر. ونعثر على بقايا أشجار وشجيرات ما يدل على

الاستخدام العنيف لها منذ العصور القديمة، وتنبت في هذه الأرض مختلف صنوف الأشجار المثمرة والحبوب. وهذا ما جعل منها موقعاً لحضارات قديمة تعود لما قبل التاريخ أيضاً. فقد عاش في كهوفها الإنسان المسمى نياندرتال Neanderthal وكذلك الإنسان العاقل Homo sapiens، وقد ولدت الزراعة والاستقرار هنا منذ عشرة آلاف سنة تقريباً، وذلك قبل أن نتعرف على الشعوب التاريخية التي تركت وثائق تدل على أسمائها وأولهم السومريون والأكاديون والبابليون والآشوريون وجعلوا من هذه المناطق الجبلية الفاصل اللغوي والحضاري بينهم وبينهم الهضبة الإيرانية. ونقصد بذلك أوائل سكان الجبال الذين حاربوهم وهم اللولوبيون Lullubi والجوتيون Guti الذين كانوا ينافسن أولئك البدو الغربيين القادمين من سورية والعربية في الإغارة على مواقع التحضر والدفء. وتشكل بقاع العراق الداخلية والسفلى، وبخاصة مناطق المستنقعات ما يدعى بدلتا، أو ذلك الشكل المثلثي الناتج عن اندماج نهرين والتقائها بالبحر، وتشكل سيلاً من الترسبات على حساب البحر. هذه المناطق تختلف عن غيرها من مناطق بلاد الرافدين. وقد اشتهرت بخط منفرد ومتميز من الطبيعة القاسية، فالمياه التي تشكل مستنقعات وبحيرات قليلة العمق وممرات مائية، كلها مليئة بالأعشاب وبخاصة القصب، قد خلقت أجواء للإنسان استطاع التكيف معها، فعاش فيها منذ آلاف السنين في بيوت من القش والطين يتداخل بين ممراتها في قوارب صغيرة، يتصيد أسماكها وبعض حيواناتها البرية كالخنزير والطيور. ولا يزال الإنسان يعيش حتى يومنا هذا، ذلك النمط القديم، الذي وجد قبل أن نتعرف على السومريين وأحفادهم من أكاديين وعرب.. ولكن لم يتركوا لنا أي أثر، سوى بعض الفخار. ذلك بسبب بساطة حضارتهم واندثارها في الطبقات الرسوبية المغمورة بالمياه أو القابعة في أعماق الرمال.

وهكذا نجد أن بلاد العراق . الرافدين متنوعة الطبيعة والمناخ وليست ذات مظهر واحد، بل هناك الجبال والهضاب المعتدلة الباردة، وهناك السهول والصحارى الحارة. ويبدو هذا التناقض أكثر وضوحاً بين جبال زاجروس وسهول الجنوب. كما أن هناك تنوعاً في الإنتاج والعمل الزراعي، تبعاً لذلك التنافس. فالجنوب يميل إلى الحرارة

والجفاف ولكنه مروي عن طريق النهرين العظيمين، والشمال معتدل بارد ممطر وجبلي.. وقد انعكس هذا الواقع الجغرافي والبيئي على التاريخ السياسي في العصور القديمة، ذلك الواقع المتناقش أو المتعارض الذي عكس طموحات سياسية شمالية وجنوبية. وهكذا فإن الجنوب يمثل سومراً والشمال آكاداً ومن ثم تأخذ بابل مكان الأولى وآشور مكان الثانية. ولم يكن ليقتصر التنافس على مجالات الأدب والفن بل تجلى ذلك في حروب أهلية تنافسية أراد كل طرف أن يسيطر على الآخر.

المواصلات وطرق التجارة والثروات الطبيعية:

إذا كانت ثروة العراق وسورية محدودة من المعادن الثمينة والصناعية، إلا أنهما يمتلكان ثروة نفطية من الذهب الأسود تعوض من تلك المحدودية. والنفط لم يكن ثروة العراق الحديثة وحسب، فقد عرفه قدماؤه منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وفق ما دلتنا عليه النصوص. وكانوا يسمونه نبتو (م) naptu (m) فإذا ما شددنا الباء وتحولت إلى فاء والتاء إلى طاء فإننا نحصل على الكلمة العربية «نفط» وهكذا فإن اسم هذه المادة المشتعلة يأتينا من الآكادية. واستخرجوا من النفط القار أو الزفت واسمه بالأكادية إدّ و iddu . لقد كانوا يحصلون على النفط من سطح الأرض وموزع في مناطق متعددة من شمال العراق، وبخاصة قرب الرمادي وهيت Hit وكذلك قرب كركوك. وقد استخدم كمادة لاصقة في البناء وحيث بنيت المعابد والقصور. كما استخدم لتقميص الأحواض والقنوات المائية والقوارب والمراكب. كما ثبتت بوساطته الانصال المعدنية والصوانية على مقابض الخشب وغيره. واستخدم لتثبيته الأَصداف وأحجار الزينة في التماثيل. ولا توجد دلائل على أن الأقدمين قد قاموا ببيعه أو تصديره خارج الرافدين[21].

(21) ن:

G. Roux, La mesopotamie , P. 25.

5 . المواد المعدنية وطرق التجارة:

لقد عمد العراقيون والسوريون القدماء إلى استيراد معظم المواد المعدنية غير الموفرة في بلادهم وبخاصة القصدير والنحاس والأحجار وأخشاب البناء، وكانا يضطرون أن يذهبوا بعيداً للحصول عليها[22] . وقد استوردت هذه المواد منذ عصور ما قبل التاريخ، ويظن أن النحاس قد جلب من القوقاز ومن شمال غرب إيران، وكذلك استورده أجدادنا الرافديون من أعماق الأناضول من مناجم ارجاني مادن (Ergani Maden) واستوردوه في عصور لاحقة، منذ فجر التاريخ، من بلاد أسموها ماجان Magan في نصوصهم المسمارية التي تنسب اليوم إلى قطر عُمان على الخليج العربي، وكذلك من جزيرة قبرص التي ذكرت في نصوص ماري . سورية تحت اسم ألاشيا أو ألاشيا Alasia. أما القصدير فقد استورد من إيران وأذربيجان ولربما من أفغانستان كما يذكر معظم المؤرخين المحدثين المتخصصين بالدراسات الأكادية. وجيء بالفضة من مناجم لها في أرمينية Armenia وآسيا الصغرى أم الذهب فقد حصل عليه الرافديون من أصقاع شتى ممتدة بين النوبة في مصر وبين الهند، ولكن أقرب مناجمه كان الأناضول وإيران. أما الأحجار القاسية والصلبة فقد استخرجوها من جبال زاجروس وبخاصة الرخام والحجر الرخامي القاسي ذي اللون الأسود، الذي صنع منه النحات السومري تمثال جوديا Gudea الشهير. وجيء بالأحجار البركانية المزججة Obsidienne من أرمينيا، أما اللازورد Lapis – Lazuli الذي يملأ اسمه النصوص المسمارية التجارية، فقد استورد من أعماق آسيا وبخاصة أفغانستان[23] ، واحتل الخشب مكان الصدارة في البناء والأثاث

---

(22) حول تجارة بلاد الرافدين انظر:

A. L. Oppenhiem, «The Seafaring merchants of Ue». JAOS, 74, 1954, PP.6 – 17; W. F. Leemans , Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden, 1960; K. Polanyi. C. A. Arensberg and H. W. Pearson (Ed). Trade and Market in Early Empores . New York, 1957, PP. 12 – 26; Trade in the Ancient Near East, London, 1977.

وهي مجموعة مقالات نشرت في مجلة Iraq.

(23) هذه مراجع متعلقة بالمعادن:

المنزلي الرافدي، ولذا فقد سعي الأقدمون إلى الحصول عليه من شتى الأصقاع نظراً لندرته في بلادهم، وكان أقرب مورد لهم هو جبال الأمانوس ولبنان هذان الأسمان اللذان سيتكرران في نصوص التجارة السومرية. وعد الأرز والسرو والسنديان والشوح من الأخشاب النفيسية التي ذكرها الرافديون في نصوصهم أيضاً. وكانت هناك طريق أخرى لاستيراد بعض الأخشاب النادرة وأعشاب البخور والعطور ألا وهي وادي السند / الهندوس، وهي على الأغلب، طريق بحرية تصل شط العرب بالبحرين . دلمون / تلمون Delmon إلى بلاد أسماها السومريون والأكاديون ملوخا Meluhha التي يظن أنها تقع على مصب نهر السند في المحيط الهندي الذي يتصل ببحر العرب.. هذا ومن المؤكد أن هذه الطريق البحرية التي لم تتبدل حتى يومنا هذا هي التي قادت قدماء سكان العراق إلى الأطراف البحرية في الشرق الأقصى وكذلك أطرافه البرية إلى الصين وأفغانستان. أما الطرق التجارية بين العراق القديم وسورية والجزيرة العربية ومصر فهي لم تكن أقل حركة وكثافة مما هي عليه اليوم، إذ لم تكن أكثر من ذلك، إذا ما اعتبرنا بطء وسائط النقل في ذلك الزمن، وسرعتها وإعاقاتها السياسية في أيامنا.

لقد استخدم العراقيون والسوريون من سكان النهرين العظيمين المراكب والطوفات في تنقلاتهم وفي معظم شواطئها إضافة إلى أنهم مخروا (Mahru وهي كلمة آكادية الأصل) القنوات الاصطناعية بين قرى النهرين. وبذلك يمكننا أن نتصور نهري الفرات والدجلة وفروعهما وقنواتهما كشوارع مائية تصل كل مدينة بأخرى، وتصل الشمال بالجنوب. ويمكننا أن نتصور كثافة التنقل والنقل والتحميل نظراً لسهولة وقلة تكاليفه في الماء، وهو أمر قد نسيه سكان الرافدين اليوم. يضاف إلى ذلك أن حوض الرافدين الأسفل المهدد بالفيضان ربيعاً، الملئ بالأوحال وشتاءً، قد كان وما يزال أكثر قابلية للنقل

J. E. Forbes , Metallurgy in Antiquity, Leiden, 1950; H. Limet, Le Travail du Metol au Pays de Sumer, Paris, 1960; J. D. Muhl. Cooper and Tin, Hamden, Conn, 1973, K. R. Max –Well – Hyslap, «Sources of Sumerian gold» Iraq, 39, 1977, PP. 84 – 86, J. E. Dicksou, J. R. Cannl and C. Renfrew «Obsidian and the Origin of trade, eu Old World Sncheology, San Francisco, 1972, PP. 80 – 88; G. Hermann, «Lapis – Lazuli; The Early Pases of its trade». Iraq. 30, 1968, PP. 21 – 57.

المائي وبخاصة قنواته ومستنقعاته، ولاسيما إذا علمنا أن واسطة النقل البرية الوحيدة في الألف الثالث وما قبل كانت الحمار فقط، حيث لم يعرف الحصان إلا في الألف الثاني والجمل في نهايته وبداية الأول قبل الميلاد. وعلى هذا يمكن أن نفهم تماماً، لماذا استخدم أسلافنا التنقل النهري بكثافة.

أما الطرق التجارية الدولية[24]: التي ربطت النهرين بما حولهما من بلدان وأقطار. فكان أولها مجموعة طرق ما تزال تستخدم حتى اليوم، تصل الفرات والدجلة بالبحر الأبيض المتوسط ومدن سورية الغربية والساحلية، والفارق بين الأمس واليوم أن الطرق أصبحت معبدة وأكثر راحة وسهولة. إن أولى تلك الطرق القديمة تلك التي كانت تنطلق من سيبار Sippar (أبو حبة قرب الفالوجة) شمال بغداد، وتصعد الفرات حتى مدينة ماري حيث ينعطف الطريق بوضوح، ويتجه باستقامة عبر البادية السورية غرباً على مسافة 380 كم ماراً بتدمر (تدمِر، الاسم ذاته بالأكادية)، حتى يصل إلى قطنة القديمة قرب حمص اليوم وهي موقع تل المشرفة الأثري الذي لم يحفر ويعطي أسراره حتى الآن[25] . وبعد أن ترتاح القوافل في قطنة السورية، فإن الطريق تتفرع جنوباً إلى دمشق ولبنان وفلسطين ومصر، وغرباً إلى سواحل لبنان الفينيقية الأقرب، وشمالاً إلى حماة وحلب شمال سورية. وقد كان اختراق هذه المسافة الطويلة في البادية، يتم انتقالاً بين قرى واستراحات تتوافر فيها مياه الينابيع والآبار، ولم تكن تلك الرحلة لتخلو من أخطار هجوم الطامعين من قطاع الطرق من سكان البادية الرُحل، بالإضافة إلى قيظ الصيف وبرد الشتاء. ولذا فقد كانت القوافل التجارية والحملات العسكرية تفضل الطريق الثانية الأطول ولكنها كثيرة المياه والغذاء، وهذه الطريق تبدأ أيضاً من سيبار، وتصل إلى

---

(24) حول الطرق التجارية الدولية القديمة انظر:

J. Lewy . «Studies in the Historic geography of the ancient Near East» Orientalia, 21, 1952, PP. 1 – 12; pp. 265 – 292; pp. 393; A Goetzw , «An Old Balblonian itinerary», JCS. 7. 1953. PP. 51 – 72; W. W. Hallo, «The road of Emar» JCS, 18 , 1964, P. 57. ff.

(25) انظر ما يتعلق بالطرق أيضاً:

D. O. Edzard , G. Franz. Szapo, «Itinerare». In, RLA, V. PP. 216 – 220.

وانظر مقالة أستاذنا P. Garelli وزملائه في RA. 52, 1958

الدجلة قرب سامراء وتسير محاذية ضفته حتى نينوى حيث تتركه وتسير غرباً وشرقاً لاختراق سهول الجزيرة مروراً بشوباط انليل (تل ليلان قرب القامشلي السورية) ثم إلى حران Harran من خلال عدة طرق ممكنة حيث تصل ضفة الفرات في مدينة كركميش Karkemish أي جرابلس السورية أو إلى إيمار أي مسكنة اليوم، حيث يتصل الطريق هذا بطريق أخرى قادمة مباشرة من الفرات الأوسط عن طريق محاذية للنهر. ويتم عبور الفرات من الشرق إلى الغرب (أو من ضفته اليسرى إلى اليمنى) على جسر من المراكب والأخشاب العائمة، حيث يتابع الطريق نحو حلب (خلب بالأكادية) وضواحيها، حيث يمكن الوصول إلى وادي نهر العاصي ومن ثم إلى مدن سورية الوسطى والمركزية وإلى البحر المتوسط ومدن العالم البحري الفينيقي الذي كان ينقل البضائع إلى قبرص واليونان القديم. هذا ويمكن خلال تلك الرحلة العروج شمالاً من نقاط متعددة للوصول إلى قلب الأناضول أو كيليكية عن طريق الاسكندرون..

من جهة أخرى كانت طرق الرافدين البرية باتجاه الشرق الإيراني أكثر صعوبة. وذلك، ليس بسبب وجود السكان الجبليين المعادين دائماً والطامحين أبداً إلى مدن العراق القديم المزدهرة وحسب، بل بسبب سلسلة حواجز جبلية هي جبال زاجروس التي لا يمكن اختراقها باتجاه إيران إلا من خلال ممرات محددة لا تزيد على أربعة محاور وتبدأ في الرايات Rayat في ضواحي السليمانية وفي خانقين في حلبية Halabja أو بنجوين Penjwin في ضواحي السليمانية وفي خانقين Khanaqin أعلى منطقة في وادي الديالي. هذا وتقود معابر الرايات وحلبية وبنجورين إلى أذربيجان وضفاف بحيرة أرميا Urmiah. أما معبر خانقين فيمكن أن يصل إلى كرمنشاه وهمذان ومن ثم إلى الهضبة الإيرانية. وهناك طريق جنوب الديالي تقود إلى الجنوب الشرقي، محاذية سفوح زاجروس حيث يمكن عبورها إلى كرمنشاه قرب مدينة بدرا (دير Der القديمة)، ومنها إلى سوزا Suse (شوش قرب ديزفول Dizful) عاصمة عيلام قديماً. ولا يعترض هذه الطريق أية موانع طبيعية ذلك أن وديان كرخيه Karkheh وقارون Karun وهما أراضي عيلام، تشكلان الامتداد الشرقي للسهل الرافدي، ولكن للأسف أن العيلاميين قد

كانوا الخصوم والأعداء التقليديين للرافدين وأسلافهم. وغالباً ما كانت هذه الطريق، طريقاً حربية أكثر منها طريق تجارة وسلام.

وهناك الطريق الأخيرة بين الطرق الكبرى سالفة الذكر، ألا وهي الطريق البحري الذي يصل بلاد الرافدين بالعالم القديم بوساطة الخليج العربي الذي تطل عليه إيران وفارس سابقاً مما جعل كثير من الجغرافيين ومنهم العرب أيضاً أن يسموه الفارسي، يعد الخليج هذا نافذة العراق الوحيدة والخطرة في آن معاً. فهي تصله ببقية شواطئ الخليج، ثم تنقله إلى وادي السند ومن ثم إلى الشرق الأقصى بعالمه الواسع الذي عرفه قدماء العراق منذ أزمان سحيقة. وقد سجلت لنا النصوص التاريخية منذ مطالع الألف الثالث قبل الميلاد أسماء هذا البحر فهو «النهر المر» [26] و «البحر الأدنى» و«بحر الشمس المشرقة». ويقود هذا الطريق المراكب انطلاقاً من أور Ur إلى دلمون . البحرين ثم إلى ماجان وملوخا في النهاية، ويتخلل تلك الرحلة توقفات واستراحات في أماكن لم تعرف بعد، ولكنها واقعة على شواطئ الخليج العربي، ولابد أن تقدم لنا مزيداً من أسرارها عند تقدم أعمال الحفائر والتنقيب. ولكن نصوص الرافدين وبعض الأختام والأدوات الهندية التي عثر عليها في مدن الرافدين، تشير بصورة قاطعة إلى وجود علاقات تجارية قديمة بين الطرفين، وهناك إشارة إلى وجود مترجم للغة ملوخا في العاصمة الأكادية في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. إن الشاطئ العربي الخليجي لم يقدم لنا أسراره في هذا المضمار، ولم يبدأ الاهتمام بالآثار والحفائر إلا بعيد ظهور الثروة النفطية والإحساس بالحاجة العلمية ومعرفة المزيد عن هذا الماضي السحيق الساحر الذي صورته نصوص سومر على أنه جنات عدن. وقد بدأت الحفائر المنهجية في البحرين

---

(26) ن:

G. Roux. La Mesopotemie, P. 27.

وانظر حول الرافدين والخليج وتجارتهما بالإضافة إلى أوبنهايم المذكور آنفاً:

I . J. Gelb, «Makkan and Meluhha in Early Mesopotamian Sources», R A. 64, 1970, PP. 1 – 8; E. C. L. During Caspers, «Harrapan trade in the Arabian Culf». Mesopotomia 7. 1972, PP. 167 – 196; «Coastal Arabia and the Indus valley in Protoliterate and Early Dynastic eras». JESHO, 22 . PP. 121 – 135.

والعربية السعودية وقطر والإمارات المتحدة وعمان وقد أعطت نتائج متوقعة وتنسجم مع معطيات النصوص الرافدية التي تؤكد على وجود علاقات وطيدة منغرسة في أعماق ما قبل التاريخ، وبالفعل فإن النتائج العلمية لتلك الحفائر قد أثبتت قيام صلات تجارية منذ الألف الخامس قبل الميلاد. وليس مستغرباً حرص ملوك سومر وآكاد على أن يبقى الخليج هذا تحت دائرة نفوذهم. ونشير هنا إلى أن الطريق البحرية هذه كانت ولا شك مترافقة مع طريق برية تسير بمحاذات الشاطئ تربط بين المواقع الأثرية المكتشفة والتي تمتد على طوله بدءاً من النافذة الرافدية مروراً بالكويت والبحرين والإمارات حتى جبال عمان حيث مناجم النحاس والأحجار الكريمة[27].

6 . خلاصة:

نستخلص مما تقدم أن الشروط الجغرافية والبيئية تؤهل الرافدين إلى قيام حضارة تتلاءم والعصور الإنسانية القديمة. وتسمح بتطور حضاري رفيع المستوى، وذلك على عكس ما كان يتصوره بعض المؤرخين. فهناك السهول الواسعة المروية الوافرة الغلال وفي طليعتها دلتا النهرين أو سهول شط العرب. وبفضل التطور التقاني وابتداع معظم طرق الري ورفع المياه وتوزيعها فقد حافظ الرافديون على زراعة منتظمة ووافرة رغم تعرضها لبعض كوارث الفيضان. ولكنّ هناك نقص واضح في مواد البناء كالأحجار والأخشاب وبقي المواد المعدنية الصناعية والثمينة، وهناك صحراء وجبال تحيط بالواديين وسهولهما المجاورة، مع ما تخفيا أي الصحراء والجبال، من مفاجآت ونكبات نتيجة إغارة سكانها على مواقع الحضر. كما أن الإطالة الضيقة على الخليج وطول شطآنه التي لم تكن مصدر أمن واستقرار لا تجعل من تلك النافذة إطلالة تنفس وارتياح. وتشكل سهول

---

(27) من أجل دراسة عامة عن التجارة في الخليج قديماً انظر:

J. F. Salles, «Le golfe arabe dans I' Antiquite. Annales d'Iustarse, Beyrouth, I. 1981, PP. 1 – 59.

مع لائحة بالمؤلفات.

وانظر حول دلمون كتاب جميل ولكن مضى عليه الزمن:

G. Bibby, Looking for Dilmun, Harmonds Worth, 1970.

الجزيرة السورية ومناطق شمال العراق المراتع الأكثر أماناً طبيعياً وبشرياً لنمو حضارة الرافدين، وليس غريباً أن هذه المناطق قد سكنت منذ العصر الحجري الحديث Neolithic وعصور ما قبل التاريخ مباشرة. وتطورت تلك الحضارة بصورتها الأكثر رقياً وإبداعاً في الجنوب على يد السومريين والأكاديين عندما أعطوها شكلها التاريخي الذي ما يزال مستمراً في الحضارة العربية بشكل أو بآخر، وندين بأصول حضارتنا إلى هذين الشعبين العظيمين السلفيين أكثر مما ندين لأي سلف أو شعب آخر! وإذا كانت تلك الحضارة السومرية الأكادية البابلية الآشورية قد دامت قرابة ثلاثة آلاف سنة حيث انتهى سلطانها السياسي تحت ضربات الفرس والإغريق، إلا أنها باقية في الحضارات جميعها وبخاصة في الحضارة العربية وإليها يجب أن تنسب نشأة العلوم الأساسية وفي طليعتها علم الكتابة والتأليف وهما أولى الخطوات نحو تقدم بقية العلوم. ولكن نشأة حضارة الرافدين واستمرارها لم يكن ليستمر في ظروف سليمة أو طبيعية، فقد كان على سكان الرافدين أن يصارعوا الطبيعة ويقاتلوا الخصوم والأعداء وهي سنة الكون كما يقال وهو ما سنقرأ عنه في الفصول التالية ولكن قبل هذا وذاك لابد من التعرف أولاً على مصادر معلوماتنا من نصوص مكتوبة إلى الآثار واللقى الباقية.

هذه المصادر كانت مجهولة ومطمورة، فكان أن حل الاستعمار والاستكشاف الأوروبي ابتداء من القرن التاسع عشر الماضي. وبدأ معه عملية رصد للآثار ونبش لترابها. فكان ذلك قصة أخرى من قصص الاستعمار الأوروبي. وهذا هو موضوع الفصل القادم.